المبحث الثالث

أنواع الاعتذار من حيث القبول والرد

شيءٌ طبيعيٌ أن نخطئ، فلا عصمة لأحد من الخطأ، ولو تحرَّينا الحرص بإيقاظ كل الجوارح كل الوقت، إذ لو كان ذلك مُمكناً ما فتحَ الله باباً لتوبة أمام مُذنب، ولما فَتحَ قلوبَ الخلق بالصَّفح والتسامح أمام مُخطئ، فإن زلت قدم محاه الاعتذار، ليعيد ما كان، في المواقف التي منشأها تعمد الأخطاء، كما أن الاعتذار يكون في المواقف التي يتوهم فيها الخطأ، فيأتي الاعتذار توضيحًا للموقف، أو بيانًا للقصد، ، فقد كان الأنصار عند فتح مكة، قد توقعوا ميل النبي صلى الله عليه وسلم للإقامة مع قومه في مكة بعد الفتح، فقالوا: "أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟ ". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ".. كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم". فأقبلوا إليه يبكون، ويعتذرون بأنهم قالوا ما قالوه لحرصهم على إقامته معهم في المدينة، فقالوا: "والله ما قلنا الذي قلنا إلا لضنّ بالله ورسوله" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم"[1] ، وكما تختلف معاني الاعتذار في وقوعه، يختلف في قبوله و رده، بحسب ما يحمله من معاني ومقاصد، وهذا ما سيأتي بيانه في هذا المبحث من خلال الآيات القرآنية الواردة في الاعتذار.

المطلب الأول: الاعتذار المقبول:

[1] الحديث: رواه مسلم ح في صحيحه (1780)كتاب الجهاد والسير باب فتح مكة(1406/3).

هو ذاك الفعل النبيل، الذي يداوى به القلوب المكسورة، والكرامة المجروحة، ويصلح العلاقات المتصدعة، وتثبت به البراءة، ويعيد المياه إلى مجاريها، ويقي المجتمع من سوء الظن، وتدافع التهم، ويوصل الإنسان إلى مبتغاه، فيحمل الاعتذار كل تلك المعاني الجميلة، بقلبٍ يملؤه التواضع والعزم والنية الصادقة.

فموسى عليه السلام حينما ناداه ربه بالوادي المقدس طوى، وأمره أن يدعو فرعون وقومه، الذين استعبدوا بني إسرائيل وذبحوا أبناءهم وظلموا أنفسهم بالكفر، أجاب نداء ربه إجابة المعتذر:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾[الشعراء:12،13]، يقول السعدي رحمه الله:"قالها موسى عليه السلام، معتذرا من ربه، ومبينا لعذره، وسائلا له المعونة على هذا الحمل"، فاعتذر موسى عليه السلام بخوفه أن لا ينطلق لسانه لما أصابه من الحبسة لتلك الجمرة التي لدغته في طفولته، فإذا وقع التكذيب له ضاق قلبه، وانقبضت روحه إلى باطنه فازدادت الحبسة، فمست الحاجة إلى معين يقوي القلب فيعين على إطلاق اللسان، فكان موسى عليه السلام النبي الوحيد الذي سأل لأخيه النبوة، لا لأجل الدنيا بل ليكون عضداً له يتقوى به في الدعوة وقد ثبت في غير هذا الموضع التصريح بذلك في سورة طه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾[طه:29]، وفي القصص:﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ ٣٤﴾[القصص:34]، ليفيد من فصاحة لسانه وقوة بلاغته، إذ كان يعترف لأخيه بذلك، وهكذا علمنا الكليم أن يعرف الإنسان نفسه، وكيف تنهض الدعوة به، وأن يكون كلٌ في

موقعه الصحيح، فقد كان عذره اتقاءً للتقصير في الدعوة لا نكوصاً عنها، ويتابع موسى اعتذاره الذي يكسوه الخوف على الرسالة: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾[الشعراء:14] فاعتذاره هذا ليس خوفاً من المواجهة والتخلي عن التكليف، ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون، فإذا قتلوه قام هارون بالرسالة من بعده، يقول سيد قطب" هو الاحتياط للدعوة لا للداعية، الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة، والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كلف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص، وهذا هو الذي يليق بموسى- عليه السّلام- الذي صنعه الله على عينه، واصطنعه لنفسه"[1].

فقبل الله منه ، وأجاب اعتذاره، و أرسل هارون معه، وزاده بالمعية الربانية تحوطه، فهو معه سبحانه يسمع ويرى؛ للتعبير عن دقة الرعاية وحضور المعونة بالنصر والتأييد والغلبة في كل موقف.[2]

وفي قصة يوسف عليه السلام إشارات في الاعتذار المقبول، ذلك حينما خرجت العير من مصر، حاملة معها قميص يوسف، قال يعقوب إني لأجد ريح يوسف لولا أن تقولوا أبونا شيخ خرف، وذلك لعظم رجاءه بمولاه، وإذا دنا أجل الضراء، يدري بذلك كل من عظمت فطنته

---

1 في ظلال القرآن (5/ 2590)

2 ينظر:جامع البيان(19/ 337)، جامع الأحكام(13/ 92)، نظم الدرر (14/ 16)، فتح القدير(4/ 111)، في ظلال القرآن (5/ 2590).

واستنارت بصيرته، فيلمس في نهاية الشدة زهر الفرج، فإذا بالبشير يأتي بمفاجأة القميص، وهو دليل على يوسف وقرب لقياه، فيرتد إلى يعقوب البصر، وهنا يُذكر يعقوب بنيه بما أخبرهم به من قبل، من أن الله سيُردُ إليه ابنه، حينها أحس إخوة يوسف بعظم الذنب، وهو أول طريق الاعتذار وندموا على ما فعلوا، وقدموا اعتذارهم بنداء الأبوة، استعطافاً لأبيهم، علَّه يمحو عظيم جرمهم﴿ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ٩٧﴾[يوسف:97]، وأقروا بذنبهم﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ٩٧ ﴾، أي متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف ، ولهذا آثروا التعبير بخاطئين لتعمدهم للفعل[1]، يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التي إجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة، عاصين لله، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين، فاعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه، أما أباهم فوعدهم بالاستغفار لهم في مستأنف الزمان، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة، لا ينقطع رجاء المؤمن فيه وإن ظلم وأساء، فأجابهم يعقوب عليه السلام، إجابة الأب الكريم الحكيم:﴿ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾[يوسف:98]، بأن أخر الاستغفار لهم[2]،

[1] يقال:خَطِىءَ الرجُلُ خِطْئاً فَهُوَ خاطىءٌ وأَخطأَ _ إذا لَمْ يُصِبِ الصواب.
وَيُقَال: قد خَطِئْتُ _ إذا أَثِمْتُ فأَنَا أَخْطَأُ خِطْئًا وَأَنا خاطِيءٌ.
قَالَ الله جلّ وعزّ: {إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً} [الْإِسْرَاء: 31] .
وَقَالَ أَيْضا : {إِنَّا كُنَّا خاطئين} [يُوسُف: 97]، تهذيب اللغة (7/ 207).

[2] ينظر:جامع البيان (16/ 261)، المحرر الوجيز (3/ 280)، الجواهر الحسان (3/ 351)، نظم الدرر (10/ 215)، إرشاد العقل السليم (4/ 306)، فتح القدير (3/ 65).

لحكمةٍ أرادها عليه السلام، يقول المراغي:"والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

(1) إن حال أبيهم معهم حال المربّي المرشد للمذنب، لا حال المنتقم الذي يخشى أذاه وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هيّن لديه حتى يعجّل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم.

(2) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة، بل موجه إلى يوسف وأخيه، ثم إليه بالتبع واللزوم، إلا أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم.

(3) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها، فلا يمّحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التي علقت بالأنفس، والأرجاس التي باضت وأفرخت فيها.

فلا يحسن بعدئذ من المربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التي تغفر ببادرة من الندم، ومن ثم تلبّث في الاستغفار لهم إلى أجل، ليعلمهم

عظيم جرمهم، ويعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته".[1]

وفي اعتذار الهدهد لسليمان عليه السلام معاني جميلة للاعتذار المقبول، ذلك أنه بعد خروج سليمان عليه السلام، بموكبه المهيب، وتنظيمه الدقيق، وقيادته الراشدة، ومروره بوادي النمل، أخذ يتفقد أحوال الرعية، فافتقد سليمان عليه السلام الهدهد من الطير، وفي هذا ما يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾[النمل:20]، فهل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبا من غير إذني ولا أمري؟، فلما تبين له تغيبه تغيظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾[النمل:21]، حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال إنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح فلذلك استثناه لورعه وفطنته، فمكث الهدهد غير بعيد بعد التهديد، وجاء بعذره السديد، وقدمه بشجاعة وذكاء أمام الحشد الغفير، فبدءه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء قلب سليمان عليه السلام له فقال: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾[النمل:22]، يقول أبو السعود: "ابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فإن النفس

---

[1] تفسير المراغي (13/ 40).

للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل"[1]، ثم أيد ذلك بإفصاحه أن الخبر يقين وليس أقاويل، وبعد أن استمال القلوب والأسماع، سرد عذره بالتأخير، بأنه وجد امرأة تملك ولاية كبرى وأُوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم، وفوق كل هذا فقد قابلوا نعمة الله بالنكران والجحود، وعبدوا الشمس وتركوا عبادة الواحد الأحد، وقد حسّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، ومنعهم من طريق الهدى، هنا أرادا سليمان عليه السلام أن يتأكد من عذره، الذي اهتزت له مشاعره[2]،يقول الطبري:" قال سليمان للهدهد سننظر فيما اعتذرت به من العذر، واحتججت به من الحجة لغيبتك عنا، وفيما جئتنا به من الخبر أصدقت في ذلك كله أم كنت من الكاذبين"[3]،فكيف يكون في زمانه من يسجد للشمس، و هو الذي بعث بدعوة التوحيد والإيمان، ويستوثق سليمان عليه السلام من الخبر، ويقبل الاعتذار بعد الامتحان لذلك والاختبار، يقول القاسمي:" وفي قوله تعالى (سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به".

شذرات في الاعتذار من خلال الآيات:

1. قد يعتذر الإنسان عن عمل ما قبل الشروع فيه، للموانع التي تمنعه من إتقانه، كما اعتذر موسى عليه السلام عن الخروج لدعوة فرعون وحده للأسباب التي بيّناها آنفاً.

---

1 إرشاد العقل السليم (6/ 280).

2 ينظر: جامع البيان (19/ 450)، تيسير الكريم الرحمن (604)، أضواء البيان (8/ 8)، روح المعاني (10/ 182).

3 جامع البيان(19/ 450).

2. من العدل والإنصاف عدم إيقاع العقوبة على المخطئ حتى ينظر في العذر، كما آخر سليمان عليه السلام عقوبة الهدهد حتى تحقق من عذره.

3. امتحان صدق العذر المقدم من سنن المرسلين، فقد امتحن سليمان عليه السلام عذر الهدهد قبل قبوله، وهكذا ينبغي التثبت من العذر، خاصة في الأمور التي ينبني عليها مصالح ومفاسد عظمى.

4. قد يكون من الحكمة تأخير قبول العذر، كما آخر يعقوب عليه السلام قبول عذر بنيه للمصالح المتعلقة بذلك، فيجدر بالمربى الحكيم أن لا يسارع إلى العفو عن لمذنب، في الأخطاء الفادحة حتى يعيش المذنب خطورة ذنبه، فيتعظ في نفسه، ويتعظ به غيره.

5. من موجبات قبول الاعتذار:

- الصدق في الاعتذار من أهم أسباب القبول، فقد قبل الله اعتذار موسى عليه السلام لما علم صدقه، فأرسل معه هارون، وزاده سبحانه بالمعية الربانية فوق إرسال هارون معه، فإن قبل الإنسان الاعتذار يحسن به أن يكرم المعتذر إن لمس صدقه، وهذا فعل الكرماء.
- التلطف في الاعتذار من موجبات قبوله، كما نادى موسى عليه السلام ربه بنداء الربوبية، تلطفاً معه سبحانه، فأجاب اعتذاره، ونادى أبناء يعقوب عليه السلام أبيهم بنداء الأبوة لاستعطافه واستمالة قلبه.
- الإحساس والاعتراف بعظم الجناية من أهم أسباب القبول، و كان ذلك ظاهراً

جلياً في اعتذار أبناء يعقوب عليه السلام، فقد كان تركيزهم على طلب العفو من الذنب واعترافهم بتعمد الخطأ في ذلك، فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾[يوسف:97]، فكان ذلك من أسباب قبول اعتذارهم بالرغم من عظم جنايتهم، وما خلفه ذنبهم من آثار نفسية وخلقية على أبيهم.

- تقديم الأسباب الوجيهة الصادقة من أسباب قبول الاعتذار، فقد عظُم ذنب الهدهد عند سليمان عليه السلام حتى توعده بإيقاع العذاب الشديد عليه، إن لم يأتيه بعذر شافي وحجة قوية على تغيبه، فكان ما قدمه من الأسباب الوجيهة سبباً لقبول اعتذاره والعفو عنه، وبذلك تناسب عظم ما اقترفه الهدهـــــد مع قوة ما قدمه من الأسباب، فالعفو عن الذنب يوازي قوة الأسباب في الاعتذار ووجاهتها.

- التقديم للاعتذار بمقدمة مناسبة، تهيئ النفس لقبوله، كما كان من الهدهد حينما قال: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾[النمل:22]، فبدأ بمقدمة استمال بها قلب سليمان عليه السلام، ورغبه في تلقي اعتذاره المنبئ عن أمر بديع.

- المبادرة في الاعتذار من أسباب قبوله، فإن ذلك أقوى على محو أثر الخطأ وإن عظم، وقد ظهر في اعتذار أبناء يعقوب عليه السلام، وفي مبادرة الهدهد في الاعتذار، فلم يمكث طويلاً بعد تهديد سليمان عليه السلام حتى آتى حاملاً معه

اعتذاره.

المطلب الثاني: الاعتذار المردود.

هو ذاك الخلق الجميل، الذي أُلبس غير لباسه، حتى ظهر بأسوأ منظر، وأبشع صورة، يتوقى به من الأنظار، و تنال به المأرب، و تطمس به الحقائق، بألفاظٍ طنانةٍ جوفاء، وقلبٍ يحركه الجبن والضعف والخبث، و لهذا النوع من الاعتذار نماذجٌ في القرآن.

من ذلك موسى عليه السلام حينما ذهب لمناجاة ربه وترك هارون عليه السلام خليفةً

على بني إسرائيل، فوقف بين يدي ربه، وهو لا يعلم ما أحدث القوم بعده، فأخبره سبحانه على وجه الاختصار بفتنتهم من بعده، فما كاد موسى عليه السلام يتركهم حتى تخلخلت عقيدتهم وانهاروا أمام أول اختبار لهم، ولا بد من اختبارات متوالية لبني إسرائيل لإعادة بنائهم النفسي، فرجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان آسفا، يوبخهم :ألم يعدكم ربكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة؟ ويؤنبهم في استنكار: أطال عليكم انتظار وعد الله؟ أم تعمدتم حلول الغضب عليكم فأخلفتم موعدي؟فأجابوه باعتذارهم السخيف: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾[طه:87]، فالأمر خارج إرادتنا وقدرتنا، وأخبروه عن تورعهم المزعوم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر بأنهم قذفوها فأخذها السامري فصاغ منها عجلا، والسامري رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب، يقول الشنقيطي:" وهو اعتذار منهم بأنهم ما أخلفوا الموعد باختيارهم، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهة السامري وكيده، وهو اعتذار بارد ساقط كما ترى!"[1]، وهكذا اعتذروا بهذا العذر ، و بالخروج من الذنب بإلقائه على السامري، ولقد صدق من قال:

إذا كان وجه العذر ليس ببين ... فإن اطراح العذر خير من العذر

وهو اعتذار سخيف كشأن بني إسرائيل في كل الأزمان (حُمِّلْنَا) هذا فعل مبني للمجهول لم

---

1 أضواء البيان (4/ 81)

يذكروا من الذي حملهم هذه الأوزار، و إنما هم الذين حمّلوها أنفسهم، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل، بغير اختيارٍ منهم، وهو اعتذار باطل مردود عليهم.[1]

و في اعتذار فرعون في اللحظات الأخيرة من حياته نوع من هذا الاعتذار المردود، فحينما يئس موسى عليه السلام من فرعون وملئه، أن يرجى لهم صلاح، أو يكون فيهم خير، اتجه إلى ربه يدعوه أن يدمر أموالهم، ويشدُد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فيستجيب الله دعائه، ويقع هلاكهم بالغرق، وذلك حينما خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل على حين غفلةٍ من فرعون، فسمع بهم فرعون و تبِعهم حتى لحِقهم و وصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله يبساً فسلك فرعون بجنوده أجمعين، فأمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون، وفرعون يعلن توبته واعتذاره لله وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرب الموت ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾[يونس:90]، أي آمنتُ مخلصاً لله منتظماً في سلك الراسخين فيه، ولقد كرر فرعون الاعتذار بعدة عبارات حرصاً على القبول المفضي إلى النجاة وهيهات هيهاتَ بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آت.

أتت وحياض الموت بيني وبينها ... وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

---

[1] ينظر: تفسير القرآن العظيم (5/ 311)،نظم الدرر (12/ 328)، روح المعاني (8/ 556).

فرد الله عليه اعتذاره، الذي جاء بعد فوات الأوان﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾[يونس:91]، الآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مهل، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقر؟، فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الإيمان لا ينفع في الحالة الاضطرارية، لأنه صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب، وقصارى ذلك إن حكم الله في جميع من تاب حين معاينة العذاب ألا تقبل منه توبة و لا اعتذار[1]﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾[غافر:85]

وهذا النوع من الاعتذار لجأ إليه أهل الباطل في كل زمان ومكان، ليتواروا به خلف باطلهم، فحينما دعاهم الرسل إلى عبادة الله وحده، وترك ما سواه قالوا: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ٣﴾[الزُّمَر:3]، يقول مجاهد:" هذا قول قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقولونه: للملائكة، ولعيسى ولعزير "[2]، و سر الأمر أنهم أرادوا بهذا الاعتذار إسكات من خلفهم عن سوء صنيعهم، وقد رد الله عليهم في مواضعٍ عدة، لتفنيد اعتذارهم وقمع باطلهم

---

1 ينظر:جامع البيان (15/ 194)، إرشاد العقل السليم (4/ 173)، تفسير المراغي (24/ 101)، تيسير الكريم الرحمن (372).

2 تفسير مجاهد (577).

المزيف بالخير، ففي نفس الآية يقول المولى سبحانه: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ٣ ﴾[الزُّمَر:3]، يقول البقاعي:" أتى سبحانه في حكايته عنهم بالتأكيد على أبلغ وجه لأن الدلالة على المعنى بلفظين أجدر في ثباته وتكثيره من لفظ واحد وبدأ بأرشق الفعلين وأشهرهما وأخفهما وأوضحهما"[1]، فأوضح سبحانه أنه سيحكم بينهم يوم القيامة حينما يحشرون مع معبوداتهم الباطلة، وأنه قد حرمهم الهداية بسبب كفرهم بالله المستور بالاعتذار الكاذب، وهذه حال أهل الباطل في كل زمان ومكان: إذا ضاقت بهم الحيل، وأغلقت في وجوههم السبل: لجأوا إلى تافه الاعتذار، وفاسد القول، وتلاعبوا بالحقائق ، ولاكوا بأفواههم الألفاظ الطنانة الجوفاء؛ ليستترون بها خلف باطلهم، فقد اعتذروا عن الإنفاق بقولهم (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)، كما اعتذروا عن جهلهم وحمقهم، وعبادتهم الأحجار التي لا تضر ولا تنفع بقولهم (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)، وقد خسر لعمر الله غاية الخسارة قوم تمذهبوا بأقبح المذاهب وجعلوا عذرهم هذه الآية التي ذم الله المعتذر بها.

وقد تمثل به المنافقون في غزوة تبوك في سورة التوبة، التي جاءت فاضحة وكاشفة ومخزية لهم، ذلك أنه حينما نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد، والخروج لقتال الروم، لبى المسلمون المخلصون داعي الجهاد وتسابقوا إلى البذل، وضربوا أروع الأمثلة في التضحية

---

1 نظم الدرر (16/ 445).

والإنفاق، ورضي قوم أن يكونوا مع الخوالف، ووراء حب الدعة، وإيثار السلامة، وسقوط الهمة، و ذلة النفس، وانحناء الهامة، وقد كانوا يظنون أن المسلمين لا يعودون من لقاء الروم، لكن الأمر لم يكن وفق خيالهم و تصوراتهم المثبطة، فقد نصر الله عزّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ومن صدق معه من المؤمنين، وعادوا سالمين آمنين، فكان الموقف المخزي للمنافقين، وافتضاحهم أمام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمجتمع أجمع، فسلكوا أساليبهم الملتوية كعادتهم في كل مرةٍ، في التغطية على قبائحهم وسوء سريرتهم، فستروا تخلفهم بعتذاراتهم الكاذبة الباهتة، لخجلهم من الظهور بفعلتهم هذه، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية، من ضعف الإيمان، و إيثار السلامة، والإشفاق من الجهاد، لكن الله فضحهم بالوحي قبل أن يُدلوا بها، وأخزاهم بردّ اعتذاراتهم ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ ٩٤﴾[التوبة:94]، وفي هذا رفضٌ حاسم لاعتذاراتهم، لأن سماع العذر يوحي بإمكانية قبوله، أما رفض سماعه ألبته، فهو قطعٌ له من أصوله، وأن لاَّ وجه في المعذرة، كما فضحهم سبحانه، بأنهم سيؤكدون اعتذاراتهم بالحلف الكاذب[1]، قال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾[التوبة:95]، يقول محمد رشيد:" لو استطعنا الخروج إلى الجهاد بانتفاء الأعذار المانعة لخرجنا معكم؛ فإننا لم نتخلف عنكم إلا مضطرين يهلكون أنفسهم بامتهان اسم الله تعالى بالحلف الكاذب؛ لستر نفاقهم وإخفائه، يؤيدون الباطل بالباطل، ويدعمون الإجرام

---

1 ينظر: جامع البيان(14/242)، مفاتيح الغيب(1/2272)، أنوار التنزيل (1/1660)، اللباب في علوم الكتاب (10/168)، إرشاد العقل السليم (4/93)، تيسير الكريم الرحمن (1/348).

بالإجرام"[1]، فيعتذرون كذباً ويؤكدونها بالأيمان الكاذبة؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم، عفواً وصفحاً، ولا يحاسبونهم عليها؛ ليضمنوا السلامة في المجتمع، فيأمر الحق سبحانه بالإعراض عنهم لكنه إعراض إهانة لا صفحٌ ولا عفو، يقول المراغي:"فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير، لا إعراض الصفح و قبول العذر"[2]، معللاً سبحانه بأنهم دنس يتجنب ويتوقى، لئلا يسري عدواهم إلى النفوس النقية.

شذرات في الاعتذار من خلال الآيات:

1. الاعتذار المردود فجٌ واسع، تتعدد مسالكه، وتتلون مشاربه، يسلكه السالكون للخروج به من المأزق والحصول به على المأرب.

2. جاء الاعتذار المردود في القرآن رمزاً من رموز النوايا السيئة، والطرق الملتوية، والمعاني الساقطة الباهتة.

---

1 تفسير المنار (10/ 401)

2 تفسير المراغي(5/11).

3. يعتبر إتاحة الفرصة أمام المعتذر لإبداء عذره، نوعاً من القبول، فمن أكرم المعتذر بسماع عذره، فقد ترك احتمالاً لقبوله، بخلاف من منعه من أصوله، فقد أوصد أبواب القبول.

4. قد يكون من الحكمة عدم الرد على الاعتذار، كما كان مع المنافقين، ردعاً و زجراً، لا عفواً وصفحاً.

5. تقديم الاعتذار بعد فوات أوانه، يعد مانعاً من قبوله.

6. كما أن الاعتذار المردود ورد في القرآن من رموز الكفر والطغيان كفرعون والمنافقين وبني إسرائيل، ورد أيضاً في أواسط المجتمع خدمة للأغراض الخبيثة والمعاني السيئة، كما كان من أخوة يوسف وسيأتي بيانه......

7. سبب رد الاعتذار لا يخرج عن أصلين:

- إما لفساد مقاصده كمن يتخذه وسيلةً للتهرب من المسؤلية وتوزيعها على الآخرين كما كان من بني اسرائيل في الاعتذار عن عبادة العجل، أو كمن يتخذه ستراً يتوارى به خلف باطله كما كان من المنافقين وأهل الباطل.
- وإما لعدم تتويجه بأسباب القبول وهذا ما سيأتي بيانه في الفصل التالي.